الحرب وغزة، باريس ورشيد مشهراوي..

منذ أيام مضت وباريس والمخرج السينمائي الكبير رشيد مشهراوي، لم يغيبا عن بالي، وتحديدا في مثل هذه الأيام من العام الماضي. فلازالت الصور والمشاهد تتقافز في رأسي مثل فلاشات الموبايل الذي كان يحمله رشيد وهو يلتقط لي مئات الصور وعشرات الفيديوهات في كل زاوية من باريس من نهر السين الي برج إيفل، ساحة الباستيل، مبني اللوفر، كنيسة القلب المقدس، كنيسة النوتردام، شتو روج، ساحة المظاهرات، أهم المطاعم، بومبي دو، شتليه، ستراسبورغ، ساندوني. . . الخ

وأول درس قال لي يجب أن تتعلم كيفية ركوب المترو لوحدك الذي بدونه لن تستطيع أن تتجول وحيدا، وتظل حبيس الفندق. لم يترك بلدة هامة في باريس إلا وعلمني كيف أصل إليها ثم أعود الى مكان سكناي في مدينة الفنون. كنا كل يوم نمشي ساعات طوال على أقدامنا وكأنه يعطيني مفاتيح المدينة ويكشف لي أسرارها التي في كثير من الأحيان الفرنسيين أنفسهم لا يعرفونها. ويحكي لي قصة كل منزل ولوحة ومنحوتة وشارع وزقاق. كان كالمخلّص لي من شبح الوحدة القاتل الذي كاد يقتلني. كما كان حاضرا بجواري في الحرب رغم بعده الجسدي في كل يوم و كل ساعة. شكرا صديقي الغالي.

لا زالت المشاهد تتقلب في رأسي، كل زاوية وركن وصديق تعرفت عليه وخصوصا أنني لحظة النزوح الى دير البلح ارتديت نفس الحذاء الذي كنت ارتديه في باريس. الحذاء المقاوم للماء والمصنوع من الجلد الأصلي. فلا أعلم لماذا كلما انحنيت لأربط الحذاء للذهاب الى سوق البلد أو سوق المعسكر بالدير وأشاهد الحذاء، تقفز أمامي صور باريس. لكن فجأة اكتشفت أن غزة بالحرب أصبحت تشبه باريس كثيرا. فمثلا، وعلى سبيل المثال لا الحصر، باريس مدينة صاخبة تضج بالحياة ولا تنام الليل. فالمطاعم، والكافيهات، والمواصلات، والمحلات، وكل شيء يظل ساهرا حتي الصباح، مثل غزة تماما. نسهر حتي الصباح على أصوات الصواريخ وقذائف البوارج الحربية، والمدفعية وأصوات الاشتباكات وصوت الزنانة الذي لا يتوقف بتاتا.

في باريس أيضا، هناك طابور أينما ذهبت. فمثلا إذا أردت أن تقطع تذكرة للدخول لمتحف اللوفر فلا بد لك من أن تقف في الطابور لوقت طويل. وإذا أردت زيارة قصر فرساي نفس الطابور، ودخول البومبي دو كذلك الأمر. تماما مثل غزة، لو أردت أن تشتري سطل ماء أو خبز صاج أو تجرأت وفكرت أن تذهب الى النصيرات لتعبئ جرة غاز، فالطابور من الدير الى النصيرات.. فلدى باريس طابور ولدينا طوابير.

أما بالنسبة لنظافة الشوارع في باريس فشوارعنا أنظف كثيرا، فلا يمكن بل يستحيل أن تجد ورقة على الأرض أو قطعة خشب أو ملابس بالية أو بلاستيك فكل ذلك أصبح كالكنوز الملقاة على الأرض لأن الجميع يستخدمونها لإشعال النار لطهي الطعام. وباقي أنواع القمامة إن وجدت سوف يعاد تدويرها بإبداع منقطع النظير. فمثلا لو كنت من المحظوظين ووجدت تنكة زيت المصنوعة من الحديد فسوف تصنع منها أرقي فرن من طابقين يعمل على النار خبز وطبيخ، وقد تؤجره بالساعة وتصبح من الأثرياء. وبذلك أصبحت غزة أنظف من باريس.

أما بالنسبة للمواصلات؛ فباريس يشتهر سكانها بركوب الدراجات الهوائية، توفيرا للوقت والمال وممارسة الرياضة. تماما مثل غزة، حيث أصبح معظم الناس يركبون الدراجات الهوائية لأنه لا يوجد غيرها، وغير

الحمير كوسيلة مواصلات، أما الرياضة فلسنا بحاجة اليها لأننا نجري ليل ونهار خلف مليون شغلة، ومليون شغلة تجري وراءنا.

في باريس الأسعار باهظة الثمن وقد تكون من أغلي الأسعار بالعالم. كنت اشتري البيضة بنصف دولار وكيلو الملح بخمسة دولارات وقس على ذلك. أما في غزة فتفوقنا على باريس بأسعارنا. بالحرب أصبح كل شيء سعره أغلي من باريس. مثلا كيلو الملح اقترب من العشرة دولارات. رغيف الخبز نصف دولار تقريبا. البيضة الواحدة نصف دولار. فلو كان عدد أفراد عائلتك أكثر من عشرة أشخاص، تحتاج كل يوم طعام بما يقارب ١٠٠ دولار. وأخيرا وجدنا شيء نتفوق به على باريس.

الآن باريس تتزين بأبهي حللها من الإضاءة والألوان المزركشة، وكل ما يتاح ليجعل المدينة أجمل، احتفالا وابتهاجا بقدوم العام الجديد. مبني الهوتيل دو فيل أو بلدية باريس الموجود وسط العاصمة يتزين الأن بأجمل تصميمات الإضاءة، والأطفال يلهون حولة ويصبح ملتقي للسائحين وللأهالي والعشاق. وبرج ايفل يعانق السماء بأروع اضاءة تشاهدها. وكذلك سماء غزة تتزين بقنابل الفوسفور المضيء والألعاب النارية من أغلى وأقوى، وأشد أنواع الصواريخ بالعالم.

يذهب عام، ويأتي عام وفي كل عام لازلنا نحلم بالحرية.

من غزة الي باريس الي رشيد اشتاق لكما وكل عام وأنتم بألف خير،

2023/12/16
علي ابو ياسين